كلمة الدكتور وهب رومية
في حفل استقباله يتحدث فيها عن سلفه
الأستاذ سليمان العيسى

الأستاذ الدكتور رئيس مجمع اللغة العربية
الأستاذ الدكتور نائب الرئيس
الأساتذة الكرام أعضاء المجمع
السادة الحضور

أسعد الله أوقاتكم، والسلام عليكم ورحمة الله.

والسلام على دمشق... السلام على هذه الحسناء المتشحة بالسواد منذ سنوات.

السلام على دمشق عاصمة الأمويين، وحاضرة التاريخ العربي المعاصر.

ويـا ربّ عـز مـن أميـة لا انقضـى ويا ربّ نور وهّـج الشـرق لا خبـا

وبعد:

فقد شرّفني مجمع اللغة العربية بترشيحي لعضويته، فأوجب علـي حـق الشكر والامتنان والتقدير للأستاذ الدكتور رئيس المجمع، وللأساتذة الكرام أعضاء المجمع واحداً واحداً.

والشكر أولاً وأخيراً لسيادة الرئيس الدكتور بشار الأسـد الـذي شـرفني بموافقته على الترشيح، فعزّز إيماني بقيمة العمل وكرامة الصواب، ولم تكن موافقته تكريماً وتشريفاً لي وحدي، بل كانت تكريمـاً وتشـريفاً لكـل محـب

لهذه اللغة، ولكل غيور عليها، وكانت تعبيراً عن إيمانه العميق بلغة أمته التي هي أهم مقوّم من مقوّمات هذه الأمة.

وبعد، مرة أخرى فقد تصرّفت بي الأسباب إلى ما صرت فيه، فوجدت نفسي على شاطئ العمر ساعة الغروب، فخلوت إليها أتأمل ... سألني الفتى الذي في إهابي:

ألم تزل تحلم؟

قلت ما قاله صلاح عبد الصبور يوماً: أسعى وراء الشمس والشمس في ظهري.

قال: ألم تزل تشتاق إلى وجود أجمل وأكمل؟

قلت: الأشواق جمر الكلام، ألم تسمع قول المتنبي:

وكثير من السؤال اشتياق وكثير من ردّه تعليل

قال: والشعر؟

قلت ما قلته منذ سنوات: أيها الشعر، يا يمامة من برق وغمام، هبني بعض صوتك فأنعتك به، أو بعض ريشك فأطيرَ به إليك.

قال: والحنين؟

قلت: بنفسجة الروح، وسرب قطا أصابه عاصف راعد فيه مطرٌ وبَرَد.

قال: والفقراء؟

قلت: أعطوهم الوطنية.

قال: والأثرياء؟

قلت: أخذوا الوطن.

قال: والحزن؟

قلت: حزن السوريين لا ضفاف له.

قال: والمجتمع؟

قلت: لا صلاح ولا فلاح لمجتمع لا يعترف بأخطائه. وعلى السوريين جميعهم أن يعترفوا بأخطائهم إذا أرادوا الحياة.

قال: والتاريخ؟

قلت: على السوريين أن ينسَوا جزءاً من تاريخهم، ولا سيما تاريخهم القريب، ليضفوا على تاريخهم الشعور بالتناغم والانسجام، شأنهم في ذلك شأن أمم الأرض قاطبة.

قال: والخيانة؟

قلت: صارت عند العرب وجهة نظر.

قال: والحياة؟

قلت: علّمتني النسبية في كل شيء.

تأمّلني هنيهة، ثم توارى في القلب. فالتفتّ أتفقدّ مركبة العمر، وأسمع صرير عجلاتها، ووقع حوافر خيلها... فهتفت «يا حوذيّ، يا حوذيّ، لا تسرع».

فلم يزل تحت لساني بقية من حديث أخصّ به هذه الفاتنة التي نسميها «اللغة العربية». كلنا نحبّها، ولكننا نخونها سرًّا وعلانية!

كلنا عشاق لها، ولكنها تكاد تقع سبيّة بأيدي الغزاة على مسمع ومرأى منا، ونحن لا نملك الكثير لمساعفتها وإنقاذها! وهل تملك مجامع اللغة إلّا ما يطفئ حرقة العطش؟

أيها السادة:

إن مصير اللغة مرهون بمصير أبنائها ترتقي وتنتشر وتتطور بارتقائهم وتطوّرهم وقوتهم، وتنحط وتتراجع بانحطاطهم وضعفهم وضمور دورهم الحضاري. إن تاريخ اللغة يقرأ في ضوء انتصارات جنودها وكشوف

مكتشفيها، فقد كانت اليونانية لغة التواصل في الشرق الأوسط بسبب جيوش الإسكندر، وكانت اللاتينية لغة التواصل في أوروبا زمناً بسبب جيوش الإمبراطورية الرومانية، وكانت العربية لغة العلم والثقافة والحضارة قروناً متلاحقة في أصقاع واسعة من العالم بسبب جيوش الفتح العربي الإسلامي. وتهيمن اللغة الإنكليزية على العالم اليوم بسبب التوسع الاستعماري البريطاني، والجيوش الأمريكية التكنولوجية الجرّارة.

ولو انتصر «هتلر» في الحرب العالمية الثانية لسادت الألمانية في أرجاء شاسعة من العالم - بتعبير الحسان بو قنطار.

وإذا كان تاريخ اللغة الداخلي يبحث في تطورها وأبنيتها ومكوّناتها الصوتية، والمعجمية، والصرفية، والتركيبيّة فإن تاريخها الخارجي يبحث في المكانة التي تتبوؤها في مجتمعها، ومدى تقدير أهلها لها.... ويكفي كي نعرف مكانة اللغة العربية بين أهلها أن نتذكر شخصية أستاذ اللغة العربية، وما يحيق بها من السخرية والتهكم والاستخفاف الذي يخالطه الازدراء في عدد من المسرحيات والأفلام القديمة، وأن نتذكر العبث باللغة العربية وازدراءها في مسرحية مدرسة المشاغبين وغيرها. بل يكفي لمعرفة ما أصاب اللغة العربية من هوان على أيدي أبنائها أن نقرأ أطرافاً مما يكتب في مواقع التواصل الاجتماعي لنكتشف أن ظاهرة «العربيزي» تكتسح هذه المواقع، وأن نستمع إلى كثير من أبنائها وهم يحرصون على إدخال الألفاظ والعبارات الإنجليزية في درج كلامهم حتى ولو لم يكونوا متقنين للإنجليزية. واستمع إلى كثير من الفضائيات والإذاعات العربية، واقرأ أسماء المحال التجارية والمطاعم والفنادق. بل – وهذا هو الأدهى والأمرّ- استمع إلى أساتذة الجامعات وهم يناقشون الرسائل العلمية في الكليات الجامعية قاطبة.

إن مصدر خوفي على «اللغة العربية» ليس ناشئاً من اللهجات العامية التي نلهج بها في شؤون حياتنا اليومية، فهذه مسألة ترافقنا منذ قرون، وقد تكيّفنا معها. بل هو ناشئ من استخدام هذه العاميّات في المنابر الثقافية والإعلامية. وهو ناشئ قبل ذلك من هيمنة اللغات الأجنبية على العربية ومحاصرتها على النحو الذي ذكرته.

إن تجارب الأمم تؤكد أهمية اللغة ونماءها باستخدامها في شؤون الحياة جميعها، ولابدّ للغة من أن تعاصر تاريخها، وتنفتح عليه، وتعبّر عنه، وبقدر ما يتكوّن الفكر باللغة تتكون اللغة بالفكر. إن اللغة هي ابنة المجتمع والتاريخ معاً، إنها ذاكرة الأمة، والثقافة هي مخزون هذه الذاكرة. والعلاقة بين اللغة والثقافة علاقة عضوية، وهل يمكننا الحديث عن ثقافة عميقة بلا لغة، أو عن لغة لا ثقافة لها؟

لقد أصدر الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب عام ١٩٩١م قراراً يقضي بأن تكون اللغة الإنجليزية مادة استراتيجية أولى قبل الرياضيات والفيزياء، وغدت بذلك اللغة الإنجليزية في عالم الثقافة توازي الدولار في عالم الاقتصاد. وليست «العولمة» في وجهها الثقافي سوى هيمنة على الثقافات الوطنية، وهيمنة على اللغات القومية.

أيها السادة:

إننا نعيش في عصر يشهد تسارعاً مذهلاً في العلم ومكتشفاته وإنجازاته التكنولوجية، ويشهد تفجّراً معرفياً لا عهد للإنسانية به، وعلى «اللغة العربية» أن تستوعب ذلك كله، وتكون قادرة على التعبير عنه. وعلينا أن نتذكر أن اللغة القديمة لا تستطيع التعبير إلّا عن الأفكار القديمة، لذا لا مناص لنا من تجديد لغتنا وتنميتها والارتقاء بها لنستوعب روح العصر، وتكون قادرة

على التعبير عن حضارته وعلمه وثقافته. ويجب أن نتذكر أن اللغة لا تؤخذ من بطون الكتب وحدها، بل تؤخذ من أفواه الناس أيضاً

إن النهوض باللغة العربية ليس قضية لغوية، بل هو قضية ثقافية سياسية. وما من تبعيّة لغوية إلّا جلبت معها تبعيّة ثقافية، وكل تبعيّة ثقافية هي جزء من تبعيّة سياسية واقتصادية، لأن «التبعيّة» حالة حضارية شاملة لا تقتصر على وجه من وجوه الحياة دون آخر. وحين يغشى اللغة ضعف أو تراجع في انتشارها فهذا دليل على ضعف يغشى الثقافة نفسها، ويهدّد «الهويّة». وانطلاقاً من هذه الرؤية أحيّي تجربة الجمهورية العربية السورية الرائدة في اتخاذ اللغة العربية لغة للبحث العلمي والتعليم العالي على الرغم مما يشوبها.

إن اللغة نشاط روحي خلّاق، وهي مثقلة بالأفكار لأن دلالتها دلالة داخلية كامنة فيها، وهي دلالة تختزن سياقاً تاريخياً اجتماعياً ضخماً. إنها - أي اللغة - تعكس تصوّرنا للعالم وأشيائه، وحين نستخدمها فإننا لا نستخدمها عارية من هذا التصور، بل هي مفعمة به. وأكبر دليل على ذلك التسميات، فالتسميات غير محايدة، بل هي تكشف عن تصوّر مستخدميها لها. ويكفي أن أذكر أمثلة قليلة لذلك. فلننظر في هذه التسميات التي تدلُّ كل اثنتين منها على الأمر نفسه على الرغم من الاختلاف الشديد في تصوره، والموقف منه:

الشهيد/ القتيل، الفدائي/ الانتحاري، مواطنون/ رعيّة، عمال/ أجراء، الإصلاح الزراعي/ مصادرة أملاك الإقطاعيين، ترشيد الاستهلاك/ ارتفاع الأسعار... ولم تُسَمِّ أمريكا غزو العراق احتلالاً بل سمّته تحريراً، ولكنها اضطرت بعدئذ إلى الاعتراف بأنه احتلال. والحديث قياس.

وإذن ليست اللغة أداة محايدة كباقي الأدوات، ولكنها تصوّرات في هيئة رموز منحازة ثقافيًّا في كثير من شؤون الحياة؛ لأنها ذات مرجعيّات ثقافية. إنّ دلالتها ليست دلالة خارجيّة كدلالة الدخان على النّار أو الغيم على المطر، بل هي دلالة داخليّة كامنة فيها كما قلت منذ قليل.

ولقد أعلم – كما تعلمون – إضافةً إلى ما تقدّم، أنّ اللغة العربيّة اليوم تواجه عقبات شتّى، ويعتريها ضعف أو قصور في أمور كثيرة لا يسمح الوقت بالحديث عنها.

ولكنّني أعي جيّداً أنّ ما تصنعه الظروف والممارسات التاريخيّة قابل للتغيير، وليس قدراً مقدوراً لا فكاك منه إلّا عند الذين ينظرون إلى التاريخ نظرة سكونيّة لا تليق بإنسان مثقّف، فالتاريخ صيرورة مستمرّة لا تعرف الثبات والسكون. ولعلّ جدارتنا بالإنسانيّة تتحدّد بمدى قدرتنا على التحدّي والتغيير.

ولعلّ «سليمان العيسى» خير شاهد على «الإنسان العربي» المؤمن بالصيرورة التاريخيّة، والمتمرّد على واقعه، والمتحدّي لشروطه التاريخيّة، والجدير بالإنسانية، والحالم –ككلّ المصلحين الكبار في التاريخ– بغدٍ أجمل وأكمل. لم يستطع الواقع الضيّق الفقير أن يقيّده يوماً، بل ظلّ يحلم بالممكن الرحب الغنيّ. وظلّ يلوذ بحلمه العربي الكبير كما يلوذ مقاتل عنيد بسيفه وهو يوغل في الطِّراد.

لست أدري لماذا تعاسرني اللغة كلما هممت أن أحدّثكم عن «أبي معن»؟ ولقد عاسرتِ اللغة وعاصتِ الشاعر الكبير «عبد العزيز المقالح» حين أراد أن يتحدّث عنه، فقال مخاطباً نفسه: (كيف تقف في السفح لتتحدّث عن القمّة؟ وكيف تقف عند رمال الشاطئ لتصف البحر؟).

وأنا أسأل: كيف يمكن أن يتحدّث إنسان في نفسه رسيس من الشكّ عن يقين جيل، وأحلام أمّة جسّدها «سليمان العيسى»؟ نحن في مرحلة تاريخيّة معقّدة وشائكة يراجع فيها الوعي نفسه، فيطرح أسئلة على المأزوم من يقينه، فكيف يتحدّث يقين مأزوم عن يقين راسخ تصونه وتقوّيه صلابة الروح؟ ثمّ عن أي «سليمان» أحدّثكم؟ أأحدّثكم عن سليمان الإنسان المفعَم بالإنسانيّة، والمملوء بدويّ التاريخ العربي؟ أم أحدّثكم عن «سليمان» شاعر العروبة، وشاعر الكبار والأطفال، وصاحب الشعر (الحلمنتيشي) الساخر؟ أم أحدّثكم عن «سليمان» المترجم، وعضو مجمع اللغة العربية؟ هل أحدّثكم عن شعره ديواناً ديواناً، وعن الجوائز التي نالها؟ ما أصعب أن تختصر البحر في موجة، والغابة في شجرة، وسليمان العيسى في بُعد واحد من أبعاده الإنسانيّة والفنية الرحبة!!

لم تكن حارة بساتين العاصي في قرية النعيريّة القريبة من أنطاكيّة التي ولد فيها سليمان العيسى عام ١٩٢١م تحلم يوماً أن تدخل التاريخ. ولا كان الشيخ أحمد العيسى، شيخ القرية ومعلّمها وصاحب كُتّابها الذي هو بيته، يحلم يوماً أن تردّد الجماهير في دنيا العرب قاطبة قول ابنه سليمان:

من المحيط الهادر
إلى الخليج الثائر
لبيك عبد الناصر

أو أن تردد قوله في ذكرى قيام الوحدة السورية المصرية:

سمراء صحرائي، ونسري أسمرُ ورسالتي ورق الخلود الأخضر

..... إلى أن يقول:

حُلُم الثرى أن تستفيق حضارة ويجدد الدنيا نبي أسمر

ولعلّ سليمان نفسه لم يكن يحلم يوماً أن يكون شاعر العروبة الأول، والمعبّر عن أحلام مرحلة النهوض العربي وأشواقها، وأن يكون معلّم الأجيال: كيف تحلم وكيف تغضب وكيف تحب؟ ولا يزال صوته العميق الساطع العصيّ على اليأس يتردّد في مسامعنا.

ولد سليمان العيسى في أسرة رقيقة الحال، وتلمذ لأبيه، فحفظ القرآن الكريم، وديوان المتنبي، وعشرات القصائد من عيون الشعر العربي القديم والحديث. ثم أتمّ دراسته الابتدائية في أنطاكيّة، وكانت ثورة لواء الإسكندرون على الأتراك قد بدأت، فاشترك - وهو طفل - في مظاهرات الاحتجاج، وألقى بهذه المناسبة قصائد لفتت إليه الأنظار، ولا سيّما نظر زكي الأرسوزي الذي كان يشرف على نادي «العروبة» يومئذ.

ولم يلبث أن غادر اللواء في قافلة التشرد الأولى، فأصبح طالباً في القسم الداخلي في تجهيز حماة. ثم تابع دراسته في اللاذقية ودمشق. وفي دمشق توطدت علاقته بالأستاذ زكي الأرسوزي، وبعدد من الشبان اللوائيين المهاجرين. وهؤلاء هم النواة الأولى التي أسّست حركة نضال قومي باسم «البعث». في عام ١٩٤٤م سافر إلى العراق في بعثة علمية، والتحق بدار المعلمين العالية ببغداد، ومنذ اليوم الأول في دار المعلمين التقى فتى ضامراً نحيلاً مثله قادماً من أبي الخصيب في البصرة اسمه: بدر شاكر السيّاب، الذي أصبح بعدئذ من أهمّ روّاد الشعر العربي المعاصر. وبعد رجوعه من العراق استقرّ مدرّساً في حلب حتى عام ١٩٦٧م، وفي هذه الأثناء التقى رفيقة دربه وكفاحه الدكتورة ملك أبيض. ثم انتقلت الأسرة الصغيرة إلى دمشق عام ١٩٦٧م، فعيّن موجّهاً أوّل للغة العربية في وزارة التربية، وعُيّنت د. ملك مدرّسة في جامعة دمشق. وبعد أن أحيل على التقاعد تلقّى دعوة

كريمة من د. عبد العزيز المقالح، رئيس جامعة صنعاء، ومؤسس الجامعات اليمنية قاطبة ما عدا جامعة عدن، فأجاب الدعوة هو ورفيقة دربه، واستقرّا في اليمن خمس عشرة سنة. وكانت هذه المرحلة أغنى مراحل حياته، وأغزرها شعراً. وفي عام ١٩٩٠م انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق. وظلّ فيها يحيا حياة بسيطة وادعة إلى أن أغمض عينيه إغماضتهما الأخيرة على أحلام من ورد ونار عام ٢٠١٣م.

كان سليمان العيسى أحد مؤسّسي «اتحاد الكتّاب العرب»، ورئيس تحرير مجلة «المعلم العربي» زمناً، ونال جوائز رفيعة أهمها: وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة، وشهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة صنعاء، وجائزة اللوتس، وجائزة شعر الأطفال، وجائزة مؤسسة البابطين للإبداع الشعري.

وكان يتقن اللغتين الفرنسية والإنجليزية، ويلمّ باللغة التركية. وقد ترجم مع رفيقة دربه د. ملك أبيض عدداً من روائع الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، وكانت تربطه صداقة بهؤلاء المبدعين، فترجم بالاشتراك مع د. ملك ديوان «الشقاء في خطر» لمالك حداد، ورواية «نجمة» لكاتب ياسين، وعدداً من مسرحياته، ومنها: «الأجداد يزدادون ضراوة» و«الجثة المطوّقة»، كما ترجم مئة قصيدة من روائع الشعر الحديث، ورواية «حارس الشيلم أو الشوفان» للكاتب الأمريكي (ج.د. سالنجر).

وترجم بالاشتراك مجموعة كبيرة من قصص الأطفال، أهمها: «روائع من أدب القارات الخمس للأطفال». وتُرجم بعض شعره إلى الإنجليزية.

لقد عاش «سليمان العيسى» تاريخ أمته يوماً يوماً، وناضل لتحقيق أحلامها نضالاً مريراً أدخله السجن عدة مرات، ولكنه استعصى على الوهن

واليأس. ولم يُغوه المال، ولا بهرته الشهرة، فأنفق معظم عمره يعيش في قبوين، أحدهما في حلب، والآخر في دمشق. وقد صوّر مدخل الثاني فقال:

درجات عشر هبطن نزولاً هن مثل التمهيد للأبديّه

ولقد تحدث الباحثون كثيراً عن بساطته ووداعته، وتواضعه. وأجمل ما قرأته عنه، وعرفته فيه عن قرب، هو قول ابنه «معن»:

«النادر في شخصية «سليمان العيسى» هو ذلك المزج العجيب بين «البساطة» التي تصل إلى حدّ البراءة المطلقة، وبين «العمق» الذي يجعل منه كنزاً معرفيًّا وإنسانيًّا وفلسفيًّا ولغويًّا يسير على قدمين». ويضيف: «العمود الفقري، كما أراه أنا، لشخصية الوالد، أو هذا الشريانُ الذي غذّى خلاياه بمزيج نادر من الأنفة والزهد الشخصيين، ومن الرغبة التي تصل إلى حدّ الطمع في تحقيق كل أمانيّ أمتنا العربية، ورغبات شعبنا في التوحد والتقدّم والغنى. الزائر لمنزله البسيط في دمشق قد يكوّن فكرة عن قناعته وزهده، ولكن الناظر إلى واقع أمتنا العربية الحالي يعرف إلى أي حدّ «شديد الطمع» هو سليمان العيسى».

لقد درجنا في النقد المعاصر على القول: إن النقّاد والمؤرّخين يتحدّثون عن أسطورة الشخصيّة الإنسانية أكثر مما يتحدّثون عن حقيقتها التاريخية. فهل يصحّ هذا القول على «سليمان العيسى»؟ أرجو ألّا أكون مبالغاً إذا قلت: إن الفرق بين أسطورة سليمان العيسى وحقيقته التاريخية فرق طفيف جدًّا لا يكاد يرى. ولعل مفهومه للشعر وشعره خير شاهدين على ما أقول.

مفهومه للشعر:

من المشكلات الأساسية التي تؤرق حياتنا النقدية المعاصرة مشكلة

«مفهوم الشعر»، ولا سيّما بعد التحولات الضخمة التي طرأت على القصيدة العربية. وتدور هذه القضية في حدود ثلاث قضايا هي:

١ – وظيفة الشعر، وهي تتصل اتصالاً وثيقاً بمفهوم «الرؤية أو الموقف».

٢ – ماهية الشعر.

٣– أداة الشعر.

ومن هذه القضايا تنشأ أسئلة حول الشعر، أهمّها:

– ما العلاقة بين البِنية والرؤية؟

إن الحياة هي مادة «الشعر» الغُفل (الخام) الأولى والأهم، ويضيف الشعراء إلى هذه المادة فهمهم لها، وموقفهم منه. إنهم يلقون على كواهل الموجودات مشاعرهم وأشواقهم ومخاوفهم ورؤاهم. والحياة هي أيضاً غاية الشعر، فليس في الشعر إلا قضايا الإنسان.

الشعر أصالة وإبداع، إنه معاناة للحياة، وهذا هو معنى الأصالة. وهو يقلق المتلقي، ويرجّ الثابت فيه، وهذا هو معنى الإبداع. فكيف فهم سليمان العيسى وظيفة الشعر، أو كيف عبّر شعره عن موقفه أو رؤيته للعالم؟

يقول: الشعر نبض الحياة العميق، وقمّة كفاح الإنسانية. وحين قُدّر للكلمة أن تحمل جناحين أخذ الإنسان يحقق معناه، بدأ تاريخه الجميل. ولا أستطيع أن أتصور إنسانية بلا شعر. ألا يذكرنا هذا بقول أحد الفلاسفة: لولا الفن لكانت الحياة خطأ يصعب تصحيحه.

ويضيف سليمان: حملت القضية العربية كما تحمل جلدك، ولون عينيك. الكلمة هي الإنسان.... إلى الجحيم كل كلمة لا يخرج من إهابها إنسان.

وإذن، إن وظيفة الشعر كما يراها «سليمان العيسى» هي قضية الإنسان عامة، والإنسان العربي خاصة. وليذهب إلى الجحيم كل شعر لا يتحدث

عن قضايا الإنسان. ومن يقرأ شعر «سليمان» يعرف معرفة دقيقة أن جُلّه موقوف على قضايا أمته في كفاحها من أجل غد أكمل وأبهى. وقد تتغيّر الرؤية الشعرية، فنراه في مجموعاته الأخيرة «ثمالات» لا يكتفي بالحديث عن أمته، بل يضيف إليها شعراً وجدانياً مملوءاً بالألفة والحنين والشجن. وقد نراه قبل ذلك يتجه إلى الأطفال. أو إلى الشعر الساخر كما في «الديوان الضاحك» الذي يطلّ منه الهمّ القومي. ولكن هل ترى في هذا التغيير أمراً خارجاً عن قضايا الإنسان العربي؟ إن الرؤية الشعرية قد تتغيّر، ولكن القضية الشعرية تظل هي هي، إنها قضية الإنسان العربي في بحثه الدؤوب عن ذاته وأمته، وما يحدوه من شوق إلى وجود أكمل.

وقد صرّح سليمان بذلك، فقال: الشعر القومي يلقي بظلاله وألوانه على كل ما في الوجود من حولي، على كل ما يمرّ بي في الحياة... هذا الشعر القومي هو السمة الأولى لإنتاجي، والطابع المميّز لكل ما قلت، وما سأقول.

بعبارة واحدة: لقد كان سليمان العيسى أهمّ شاعر غنّى للعروبة والوحدة العربية. ولم يقع حدث ضخم في تاريخ العرب المعاصر لم يواكبه سليمان العيسى بشعره. فشعره النضالي هو الوثيقة الفنية لأحداث أمته. وكان إيمانه باللغة العربية راسخاً لا يتزعزع، ولكنه إيمان منفتح على روح العصر. يقول: أما اللغة.... ففيها يكمن سرّ الشعر والشاعر. كنت وما زلت أُعنى بالعبارة المشرقة الواضحة. ويردف «يجب أن يتجدّد التعبير كل يوم كما تتجدد الحياة، ولا حدود لهذا التجديد.... ويجب أن يكون هذا التجديد إحياء لهذه اللغة مع المحافظة على أصولها وفروعها واشتقاقاتها وصرفها ونحوها، وبالتالي مع جذورها».

ثم يضيف: «الكلمة التي لا تخرج من كفنها المعجمي لتواجه الحياة

بجناحين قويين، وبكشف جديد، تسقط مكانها، حيث لا مسوّغ لوجودها، ولا للحديث عنها ..... الكلمة مخلوق متمرّد حين تصدر عن إنسان متمرّد... هي - عندئذ - كالأنثى المتوحشة القادمة من غابات النفي».

لقد عرف عن «سليمان» عنايته الفائقة باختيار ألفاظ شعره. وقال الشاعر فاروق شوشة: «إن لغة سليمان العيسى لغة شعرية شديدة الصفاء والنقاء والتدفق، وإن نثره متوهج بكيمياء الشعر، نديّ بماء الشعر».

وما أكثر ما شكا الشعراء من الكلمات المسكونة بأصوات الآخرين! وما أكثر ما بحثوا عن لغة عذراء لم يمسّها الآخرون!

هل تسمحون لي أن أحوّل هذا الكلام كله إلى لغة نقدية؟ إن الشعراء هم ملوك الكلام حقًّا، ولكنهم لا يخترعون ألفاظاً جديدة. والشعر لا يملك أداة خاصة به كالرسم والنحت والموسيقا... ولكنه يستخدم أداة عامة هي «اللغة» التي يستخدمها الناس في دنياهم. وهذا هو مصدر الشقاء والعبقرية معاً في إبداع الشعر على نحو ما نعرف من شقاء الفرزدق وغيره في إبداعهم. باقتضاب شديد: إن الشعراء يستخدمون هذه الأداة العامة «اللغة» بكيفية خاصة، ولا يكون ذلك إلّا ببناء التراكيب، وعلى مستوى التركيب يتجلّى جوهر الشعر، وفيه يمارس الشاعر كل شعائره السحرية محاولاً أن يعيد إلى «اللغة» وظيفتها السحرية القديمة. فتشكيل الكلمات في تراكيب هو مبدع القصائد، وأما الأغراض الشعرية، والمحمولات الأخلاقية والاجتماعية والسياسية وسواها فلا علاقة لها بإبداع القصيدة. أريد أن أقول: إن الشعراء لا يخلقون ألفاظاً جديدة، ولا يبدعون قصائدهم بأغراض الشعر ومحمولاته، بل هم يخلقون علاقات لغوية جديدة، فتبدو اللفظة في المعجم غير مكافئة لنفسها في الشعر على نحو ما أشار سليمان العيسى بلا

زيادة ولا نقصان. وأذكر أنني سألته مرة: يا أبا معن ما الذي يعجبك في قول «بدوي الجبل» مخاطباً أبا العلاء:

يا ظالم التفاح في وجناتها لو ذقت بعض شمائل التفاح

فصمت لحظة ثم قال: كلمة «شمائل» ههنا رائعة. قلت: فتح الله عليك، هذا ما كنت أبحث عنه.

ويتحدث «سليمان» عن موسيقا الشعر، فيقول: «أما الموسيقا فقد كنت وما زلت أراها أهم عنصر من عناصر الفن، ولا سيما في البيان العربي... «إن من البيان لسحراً». الموسيقا عصب الكلام الجميل... نثراً كان أو شعراً.. تبلغ ذروتها في الشعر».

إن الشعر في رأي «سليمان» إنشاد وغناء على نحو ما كان لدى العرب القدماء:

«تغنّ بالشعر إمّا أنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار»

«وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا»

وبهذا الإنشاد أو الغناء يختلف الشعر العربي عن الشعر الفرنسي أو الإنجليزي الذي يقرؤه أهله كما يقرؤون أي أمر آخر، على نحو ما أخبره شاعر أجنبي صديق.

ويرى «سليمان» القافية قيداً من ذهب، والقصيدة العمودية أشبه بفرس الجنّ. لا يستطيع أن يمتطي صهوتها إلا فارس من الجن، ولكنه كتب الشعر على وفق أنماط موسيقيّة شتّى استغرقت – أو كادت – هندسة إيقاع الشعر العربي المعاصر.

لقد عرف الشعر العربي الحديث ظاهرة تستحق التأمّل، هي ظاهرة الشعراء المناضلين، أو المناضلين الشعراء كمحمود الزبيري في اليمن،

ومفدّي زكريا في الجزائر، وسميح القاسم في فلسطين، وسليمان العيسى في سورية، وسواهم. وكانت وظيفة الشعر في رأيهم وظيفة نضالية، يقاتلون به، ويرونه سلاحاً شديد المضاء.

إنهم يرافقون بشعرهم الأحداث التاريخية لأوطانهم حدثاً حدثاً، ويسجّلونها بعد أن يُضفوا عليها من ذواتهم عناصر عاطفية وعقلية وخيالية، فيتجلّى فهمهم لها، ومواقفهم منه، ولعلّ هذا هو السبب الأول الذي طبع شعرهم بطوابع الصدق، والعفوية، والانفعالية، والوضوح والمباشرة، وعلوّ النبرة، وبتقشف بلاغي واضح. وهذه هي خصائص شعر «سليمان» النضالي، إن التفاعل بين الذات المبدعة وموضوعها هو جوهر «اللحظة الشعرية». وهذه اللحظة هي التي طبعت شعر «سليمان» بالطوابع التي ذكرتها. ولهذا السبب استعصى شعره على التصنيفات المدرسية، فرآه بعضهم رومانسيًّا، ورآه بعضهم واقعيًّا، ورآه آخرون اتّباعيًّا (كلاسيكيًّا جديداً) و... والحقيقة أن هذه الملامح كلّها موجودة في شعره، ولكنه - وهذه حقيقة أيضاً - ليس رهينة لأي مذهب من هذه المذاهب. وهو يصرّح بذلك، يقول: «ومررت في تجربتي بالمدارس الشعرية من الكلاسيكية إلى الرومانسية إلى الرمزية فالواقعية الجديدة... وكان لكل من هذه المدارس أثرها في كتاباتي..... ومع هذا فقد بقيت تجربتي الشعرية تجربة عربية تضرب بجذورها في أعماق الصحراء، وتنأى أن تتزيّا بغير زيّها العربي الأصيل».

ويفخر «سليمان» بخلوّ شعره من أية أسطورية يونانية على كثرة قراءاته، وانفتاحه على الآداب العالميّة (كالأدب الإنجليزي والفرنسي والألماني والأمريكي والإسباني والروسي). لقد تعدّدت مصادر شعره، ولكن الواقع العربي والتراث العربي هما أهم هذه المصادر. ومن يقرأ «ثمالاته» يكتشف

حضوراً كثيفاً للتراث فيها، ولكن ذلك كله يظلّ في حدود «الترميز» الساطع الخاطف البعيد عن تقنية «القناع» التي شاعت في الستينيّات لسببين هما: الرغبة في التجريب بحثاً عن تقنيات شعرية جديدة، وحالة القمع السياسي التي دفعت الشعراء لبثّ آرائهم، والتعبير عن مواقفهم من وراء أقنعتهم الفنية على نحو ما نرى عند شعراء القناع كصلاح عبد الصبور والبياتي وآخرين كثيرين. ويظلم «سليمان العيسى» ظلماً فادحاً من يقرأ الرموز التراثية في شعره – وهي كثيرة جدًّا – بصفتها أقنعة فنية، فسليمان ليس شاعر قناع، ولا خطر بباله يوماً أن يكون كذلك.

ويرى بعض الباحثين أن وظيفة الشعر أو رسالته قد غلبت على فنيّته في شعره النضالي، وقد خامر «سليمان» نفسَه إحساسٌ بذلك. قال: «صحيح أن الشاعر قد يضحّي بشيء من «فنيّة» القصيدة عندما يعيش في صميم الجماهير، في صميم الحدث، ولكنه مطالب أبداً بأن يحقّق المعادلة الصعبة... أن يرقى بالناس إلى مستوى الجمال والفن، دون أن يضحّي بأحد طرفي المعادلة، وتلك هي المشكلة: ما أصعب أن يكون الإنسان شاعراً! وما أروع أن يكون!».

هذه هي ضريبة الإبداع، وهذه هي المعاناة الفذّة التي عاناها كبار شعراء العربية الذين كانوا يسهرون بأبواب القوافي، وربما جاء وقت كان فيه قلع ضرس من أضراسهم أيسرَ من قول بيت من الشعر. إن العبقرية مقترنة بالشقاء أبداً لا انفكاك لها عنه.

لقد قلت: إن في شعر «سليمان» النضالي تقشفاً بلاغيًّا واضحاً على نحو ما لاحظ الباحثون، فقد ظلّ خياله في حدود التشبيه والاستعارة والكناية، ولم يخرج على الخيال البلاغي القديم. وحقًّا إن الصورة ركيزة

أساسية من ركائز الشعر، ومفتاح ذهبي من مفاتيح أسراره. ولكنها ليست كلّ هذه الأسرار، ولو كانت كذلك لسقط فنيًّا كل شعر الحنين في الفتوح الشرقية في صدر الإسلام، وكثير جدًّا من الشعر العذري والشعر الوجداني، بل لسقط كثير من الشعر القديم عامة.

ما أودّ أن أقوله هو أن في الشعر «عناصر تعويضيّة» يعزّ حصرها، تعوّض عن غياب الصورة البلاغيّة الفذّة، وتجبر الصدوع الشعرية التي أحدثها التقشف البلاغي. ولعلّ قراءة أخرى لشعر سليمان النضالي في ضوء هذه الفكرة تعدّل قليلاً أو كثيراً آراء الباحثين في فنيّة هذا الشعر.

لقد كان «سليمان العيسى» شاعر مبدأ وقضية، ولم تكن العروبة في رأيه – كما يقول أنطون مقدسي – مفهوماً قابلاً للتحليل والمناقشة، أو أيديولوجيا تفرضها مرحلة تاريخية وتنتهي بانتهائها، أو فلسفة يناقشها. بل كانت وجوداً. وكان حالماً كبيراً، ولكن حلمه تصدّع وانكسر، فأجبره على مراجعة اختياره، والتساؤل عن مدى صوابه:

هل كان حلم العاشقين ضلالة؟ أم أننا خيط النهار الرائد؟

ومنذ ذلك الحين حدثت انعطافة واضحة في شعره على نحو ما يتجلّى ذلك في «ثمالاته» إنها – كما يقول الشاعر عبد العزيز المقالح – «انعطافة نحو طريق آخر أحفل بالشعر الوجداني الهامس، مملوءة بالألفة والشجن والحنين». ويضيف: «تقترب هذه الثمالات من ذكريات الماضي في لغة هادئة عذبة، وفي أسلوب رائع قريب من لغة الحياة اليومية».

وتقول د. ملك أبيض: «كان الهمّ القومي يسيطر على كتاباته.... ولكن مرَّ السنين أيقظ فيه شاعرية عميقة إزاء أشياء صغيرة لم يُعِرها في الماضي الاهتمام الذي تستحقه. الثمالات حياة يومية، ومشاعر يومية، ونفثات يومية». وإذن لقد

تغيّرت موضوعات شعره تغيراً كبيراً، وحلّ محلها: غيمة، مطر، الأشجار، الوعول، قطرة ندى، كلما دلف المساء، نافذة، شاعر وذئب، لمسة ودّ، أعشاب، الوردة.... إنها مفردات الحياة الصغيرة التي هي «لبّ الحياة».

ورافق التحولَ إلى موضوعات جديدة تحوّلٌ إلى رؤية شعرية جديدة، ولغة شعرية جديدة، وموسيقا شعرية جديدة، وإلى بوح إنساني صافٍ عميق، ومشاعر إنسانية حميمة يضفيها على موضوعاته كلها. ولنستمع إليه في ثمالته «شاعر وذئب»:

خلعتني عشيرتي من جذوري
ورمت بي
إلى الفراغ الرهيبِ
موحشٌ موحشٌ نهاري وليلي
راعبٌ راعبٌ سُهادُ وجيبي
أيها الذئبُ..
أنت أدنى إلى نبضي..
فقرّب خطاك.. واسكن دبيبي
والتصق بي.. فرّبما جمعتنا
وحشة الروح في الزمان الجديبِ

لقد كان من حسن طالع الشعر العربي أن الطفل الذي كان يلعب تحت شجرة التوت في حارة بساتين العاصي في النعيرية ظلّ طفلاً نابضاً بالحياة في أعماق سليمان العيسى، ولم يكبر، فظلّ يتعامل مع الحياة وأبنائها ببراءة وبساطة وعمق، وظلّ قادراً على الدهشة والانفعال والفرح، وعلى ابتكار الأحلام وصياغتها صياغة عليها ضوء الصدق واليقين. وظلّ قادراً على أن

يتعامل مع مفردات الكون معاملة سحرية. يقول:

أمـدّ علـى السـبعين ظـلَّ عبـاءتي وأدرج طفلاً في الحـواكير يلعـبُ

ويعرفنـي عشـبُ الحديقـة كلّـه هو السرُّ.. عمرٌ بالطفولـة معشـبُ

لقد كان سـليمان العيسـى حالمـاً كبيـراً ككـل المصـلحين والثـوار فـي التاريخ، كان حامل قيم، وصانع قيم ولذا كان جديراً بالإنسانية. لقد أدرك أن في الدهر شراسةً ولياناً، ولكنه – على الرغم من ذلك – ظل يطير في أعقاب ذلك الزمن الذهبي النبيل الذي يحلم به.

هذا هو سليمان العيسى الـذي نعمـتُ بصـحبته أوقاتـاً قصـيرة متباعـدة بحكم الظروف، لكنها أوقات مفعمة بأريج الإنسان، عابقة بعبيـر الـودّ، ثريّـة بأنوار المعرفة، تظلّلها دوحة الشعر بظلالها الوارفة.

* * *